

مقالات

مرتكزات التربية الأخلاقية في عصر متغير

أ.د. علي أسعد وطفة

قسم أصول التربية - كلية التربية

جامعة الكويت

مقدمة:

يشكل النمو المتصاعد لوتائر العنف ومؤشراته في المجتمع، وفي داخل المؤسسات المدرسية وخارجها، مقدمة منهجية للبحث في مسألة التربية الأخلاقية بأبعادها الإنسانية، وتجلياتها الاجتماعية. وفي اتجاه الكشف عن الأبعاد الأخلاقية والقيمية للتربية غالباً ما يتم دراستها في خضم الظروف الاجتماعية والاقتصادية الحاضرة لها. فالأخلاق ترتبط بواقع اجتماعي محدد ومعين، حيث يقوم كل مجتمع بفرض قيمه ومعايير وقوانينه، ومع ذلك فإن القيم والمعايير تتعرض لصيرورة التغير وقدرة التبدل في دائرتي الزمان والمكان. وانطلاقاً من معادلة الصيرورة القيمية فإن إعادة النظر في منظومات القيم ودلالاتها يأخذ قيمة علمية، ويرتسم كضرورة منهجية، وتتجلى هذه الضرورة في المرحلة التي تفقد فيها هذه القيم قدرتها على أداء دورها، وممارسة وظيفتها الأخلاقية، حيث يجد الإنسان نفسه في حالة ضياع أخلاقي فاقداً للقدرة على أن يوجه أفعاله في المسارات الأخلاقية الصحيحة. وهنا أي: في هذه اللحظة، أي: لحظة الضياع التي يفقد فيها الإنسان القدرة على توجيه سلوكه، وتحديد غاياته الأخلاقية، تولد الضرورة العلمية للبحث في تجليات القيم وفي دلالاتها الوظيفية، كما تولد الحاجة إلى الكشف عن العوامل والمتغيرات المجتمعية المؤثرة في أداء المنظومة القيمية في المجتمع. وفي دائرة هذه الصيرورة المجتمعية للقيم يمكن القول: بأن التربية الأخلاقية تأخذ مكانها في عمق الوضعية الأخلاقية في المجتمع، ويرتسم دورها بين العوامل الأكثر أهمية وخطورة في توليد المنظومة القيمية، أو في انهيارها (وطفة، 2009).

فالتربية اليوم تجد نفسها بالضرورة معنية بالتربية الأخلاقية بطريقة جديدة، ومختلفة عما هو قائم وسائد في الوسط التربوي، والمربون الجدد يريدون تحقيق تربية أخلاقية لا تتناقض مع النمو الطبيعي للطفل، ولا تتركه لنزواته الذاتية المفرطة. لقد سبق لنخبة من رواد التربية الجديدة مثل فيريير Ferrière و فرينيه Freinet و نيل Neill الإعلان عن رغبتهم بتأسيس حركة تربوية أخلاقية عالمية على غرار الاتحاد العالمي للتربية الجديدة (وطفة، 2010).

ومهما يكن الأمر فإن التربية الأخلاقية تنطلق من مبدأ النمو الحر للطفل، والفكرة المشتركة بين المربين الجدد تتمثل في الانطلاق من مبدأ الحرية إزاء القهر والتسلط الذي

تمارسه المدرسة التقليدية، وهذا بدوره يمكنه أن يبرر المنطلق الأساسي للتربية الأخلاقية التي لا تنطلق من الخارج بل تلك التي تنبع من مصادر داخلية في الطفولة. فالمرجون الجدد يعملون على إيجاد معادلة تربوية بين طبيعة الطفل والتربية الأخلاقية الممكنة، وهم في ذلك يعتقدون أن حرية الطفل يجب أن تشكل وسيلة من وسائل تربيته أخلاقياً؛ إذ يجب على المربي أن يراعي النمو الطبيعي للطفل، وأن يراعي في الوقت نفسه عفويته كي يحقق التربية الأخلاقية المنشودة-(بدوي، 1976).

ويمكن التمييز في هذا السياق بين عدة أنماط من التربية الأخلاقية التي ترتبط بمضامين موضوعية، فالتربية الأخلاقية للطفل تعني أن نعلمه كيف يميز بين الخير والشر، وكيف يواجه تحديات هذا الاختيار؟ وهنا نجد أنفسنا إزاء نوعين من التربية الأخلاقية، إحداهما تأخذ طابعاً إكراهياً أو تسلطياً، حيث تملي على الفرد ما يجب أن يقوم به، والأخرى تربوية حرة تترك للفرد أن يتخذ قراره الأخلاقي بملء حريته وإرادته. وفي كلتا الحالتين فإن الطفل يواجه نوعاً من العنينة الأخلاقية. وهنا تبرز الإشكالية الكبرى للتربية الأخلاقية، وتتجلى في نقطة الاتصال بين تربوية حرة تريد للطفل أن ينمو أخلاقياً وفقاً لطبيعته الخاصة، وبين هذه التي توجه أفعال الطفل وتجبره على السلوك وفقاً لمعايير خارجية محددة سلفاً.

فالعصر يشهد تحولات وتغيرات عميقة، والاكتشافات العلمية والتكنولوجية تخطف التقاليد، وتهدم القيم، وتصدم المعايير التقليدية للوجود، التي أصبحت غير قادرة أبداً على مواكبة التغيرات الاجتماعية الشاملة والعميقة. وفي دائرة هذه المواجهة بين التقاليد والحدثة يشهد العصر تراجعاً غير مسبوق في المستوى الأخلاقي، وفي المستوى الأسري، حيث بدأت العائلة تتفكك، وبدأت معدلات الجريمة والعنف والإدمان والمخدرات تتزايد، وبدأنا نشهد تدميراً منظماً ومخيفاً للبيئة في البر والجو والبحر.

فالوجدان الذي يشكل لباب طبيعتنا الإنسانية ومركزها، يشكل في الوقت منطلق طاقتنا الأخلاقية، وبوتقة تشكلنا الإنساني. ومن هنا فإن الومضة الأولى للتربية يجب أن تنطلق من الرغبة الحقيقية في مساعدة الأطفال والناشئة على تطهير قلوبهم، وتشكيل حسهم الأخلاقي، من أجل تحقيق نضجهم الإنساني، وصقل طباعهم البشرية على مبدأ القيم الأخلاقية.

ومن ثم تأتي الومضة التربوية الثانية التي تتمثل في تمكين الأطفال والشباب من تمثيل القوانين الأخلاقية للسلوك من أجل بناء علاقة تواصل حقيقي مع الكون والآخر والذات. وهذه التربية على القيم الأخلاقية تفعل فعلها في إيقاظ القدرة على بناء علاقات جوهرية وحيوية حول الحب الحقيقي للآخر والمجتمع والإنسان.

أما الومضة التربوية الثالثة فتأخذ مسارها في امتلاك ثقافة حقيقية ومعرفة أصيلة بالكون، ومن ثم العمل على بناء معرفة فعالة بالتقانات والوسائل والإمكانيات المتاحة من أجل امتلاك مهنة وعمل تمكنان الفرد من مواصلة الحياة بشرف وكرامة (زاهر، 1986).

هذه الأبعاد الثلاثة للتربية تشكل البوتقة التي يمكن أن تعتمد في تشكيل الفرد وإعداده للحياة في مجتمع أنهكته الحدثة والثورات المتلاحقة في مختلف الميادين. فثقافة الروح والقلب تشكل الأساس الفعلي لتجاوز التحديات الكبرى التي يواجهها المجتمع.

ومع أهمية هذه الأبعاد التربوية الإنسانية فإن الواقع ينبئنا اليوم بوجود تربية حديثة تقوم على هرم آخر مقلوب يركز على عملية إعداد مهني متسارع، محورها التكنولوجيا والمعلوماتية دون اهتمام كبير بالجوانب الروحية والأخلاقية للتربية. ومع ذلك فإن النظرة الحكيمة المتوازنة للتربية تعطي الأفضلية لتربية قائمة على ثقافة إنسانية وأخلاقية؛ لأن الثقافة الأخلاقية تشكل المرتكز الحقيقي للثقافة المادية والعقلية.

فالتربية الوجدانية التي تتمثل في فن الارتباط بالآخر عبر الحب الحقيقي تشكل حجر الزاوية في عملية تشكيل شخصية الطفل. والحب الحقيقي يرمز إلى الحياة من أجل الآخر دون غايات نفعية وشخصية. ومع هذا النوع من الحب في علاقات الناس بين الرجال والنساء يؤدي في نهاية المطاف إلى الإخلاص والوفاء بين الناس في مختلف العلاقات الاجتماعية والإنسانية القائمة. وعندما ينطلق الحب من أساس أخلاقي فإن الإنسان يسلك دائماً من أجل غايات سامية تتعلق بالآخرين الذين يقعون في دائرة المحبة.

والآباء يمكنهم أن يكونوا آباء ومعلمين وموجهين حقيقيين في هذه الأدوار الثلاثة، وهم لا يكونون كذلك إلا بالحب الحقيقي الذي يشكل جوهر هذه المستويات الثلاثة من الفعالية التربوية الأخلاقية. والحب الحقيقي يكون في أن يعطي الإنسان بلا حدود، وينسى عطاياه، وأن يستمر في العطاء دون أن ينتظر رداً على ذلك، مهما يكن ذلك الرد. ومثل هذا الحب نجده عند الآباء الذين يضحون بكل شيء من أجل أبنائهم دون رجاء أو مقابل. وهذا النمط من الحب يشكل منطلق الأبوة الحقيقي.

ولا ينقطع الدور الأبوي الذي يمكن أن يجد صداه لدى المعلمين الحقيقيين الذين يمكنهم أيضاً أن يغدقوا حبهم الأصيل الشامل على تلامذتهم، ومن أجل تحقيق هذه الغاية يجب تأصيل أكثر القيم الأخلاقية أصالة ونبلاً وشموخاً، وأن يكون الأب أو المعلم نموذجاً إنسانياً أخلاقياً يلهم الآخرين من الأبناء والمتعلمين سمو القيمة الأخلاقية للحب والأنسنة (جورج، 2006).

فالمعلم، وبوحي من هذا النموذج الأخلاقي، يجب أن يكون معلماً حقيقياً قادراً على توجيه تلامذته إلى الفضيلة، وقادراً على محبتهم، كما يفعل الأب الحقيقي مع أبنائه. ولا بد للمعلم في هذا السياق من أن يكون قادراً على بناء الثقافة الخلاقة في عقول الأطفال، وقادراً على إنارة قلوبهم بحب الخير والعطاء والإيمان الشامل بالله والقيم الإنسانية. وهذا الأمر يتطلب منه أن يشعر بالمسؤولية، وأن يسهم في بناء التكوين الجسدي والأخلاقي والنفسي والروحي للأطفال بوصفهم أمل المستقبل ونبض الحياة الإنسانية المستقبلية في المجتمع.

فالعالم اليوم مع بداية القرن الحادي والعشرين يشهد ولادة ثقافة علمية جديدة تنادي بالسلام والوحدة الكونية، ويشهد طفرات علمية وتكنولوجية واقتصادية هائلة بكل المقاييس والمعايير. وهذه الوضعية تؤكد الحاجة المتنامية إلى الطابع الروحي والإنساني الذي يجب أن يفرض نفسه في مختلف ربوع هذا الكون على امتداداته الجغرافية والإنسانية.

لقد علمنا القرن الماضي أن التقدم العلمي والتكنولوجي لا يكفي بمفرده لبناء شروط السلام والتناغم الإنساني والسعادة الإنسانية الحقيقية. وما نحتاجه اليوم، من أجل

عالم أكثر أنسنة وعدلاً وسعادة، يتمثل في رؤية جديدة كونية محورها القيم الأخلاقية والإنسانية. وهذه الرؤية الإنسانية الجديدة ضرورية من أجل بناء كيانات إنسانية جديدة خلقة، وإيجاد عالم يفيض بالأنس والجمال الأخلاقي، وبناء أناس يستشعرون السلام والتكامل والإحساس بوحدة الوجود والانتماء والكينونة. وهذا يتطلب منا البحث الدائم عن القيم الأخلاقية والروحية، كما يتطلب استقصاء التكامل الأخلاقي الأفضل الممكن ما بين القيم الجديدة والقيم التقليدية، ما بين قيم الحاضر وقيم المستقبل، ما بين قيم الشرق القديم وقيم الغرب المحدث. ومن دائرة هذا التكامل بين هذه القيم الكونية يمكننا توليد قيم جديدة تتسم بالروعة والجمال، وتعبر عن روح العصر وحاجاته الروحية والإنسانية (سالم، 2007).

ومن أجل تحقيق هذه الطموحات والأمنيات الإنسانية الخلقة يجب علينا أن نوفر للأطفال والناشئة أجواءً أسرية، مفعمة بالحب، فيأضة بالمعاني، قادرة على تشكيل وعي الشباب وضمايرهم، وتسديد خطاهم نحو الحق والخير والجمال. فطهارة القلب وقوة الروح تشكّلان الأساس الحيوي لبناء مستقبل آمن وأخلاقي للمواطنة. فالوعي الإنساني الحقيقي نزاع إلى فعل الخير واكتناه الجمال والبحث عن الدلالة والمعنى. ولكن الوعي نفسه في فضاء أخلاقي مدمر لا يمكنه أن ينطلق إلى غايته الكونية العليا. وهنا يجب علينا جميعاً آباءً ومعلمين ومربين وسياسيين تحمل المسؤولية من أجل تطهير الوعي وتنقية الضمير وتحرير الوعي الإنساني، من أدرانه، والقلب البشري من أوجاعه؛ كما يجب علينا أن نساعد أبناءنا على تبني هذا التوجه الإنساني وتمثل غاياته العليا. فالشباب يتطهرون في أجواء المحبة الحقيقية وينهلون من معين قوتهم الروحية من الوسط الاجتماعي الذي يكتنفهم. وتلك هي سمة أساسية في المجتمعات المدنية المتحضرة التي تتميز بطابعها الروحي.

القيمة الأخلاقية في عصر متغير:

كيف يمكن لنا أن نعدّ مواطنين يمتلكون حسّ المسؤولية في عصر تعصف به التغيرات العاصفة والتحوّلات التكنولوجية المذهلة؟ وما أفضل الطرق التي يمكن أن تعتمد في عملية بنائهم وتربيتهم؟ هذه المسألة ما زالت الشغل الشاغل للآباء والمعلمين والمربين في مختلف أنحاء الكون على امتداده الجغرافي والإنساني. فالعائلة اليوم وبتأثير الانفجارات التكنولوجية والحدائية تنشطر وتتفجر وتتفكك تاركة آثارها السلبية المدمرة على الأطفال والحياة في كل الأنحاء. لقد اعتقد كثير من الناس أن التقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي يمكنه أن يحقق الرفاه والكمال والسعادة للناس جميعاً، ولكن هذا الاعتقاد لم يُصب كبد الحقيقة، فأغلب المجتمعات الإنسانية ما زالت تعاني الأمرين مع الحضور المظفر لهذا التقدم الحاصل في الحياة.

والسؤال هنا ما الذي نشترك فيه، وما القواسم المشتركة الواحدة التي تجمع بيننا نحن بني البشر؟ فعلى الرغم من مظاهر الانقسام والتشظي والانشطار التي تحيط بنا فإن الإنسانية جمعاء تمتلك روحاً أخلاقية واحدة متجانسة أبداً. فالناس جميعاً في كل أنحاء العالم يحترمون القيم ويمجدون العدالة، ويرفعون من شأن المدنية والحضارة، ويقدمون الحقيقة ويعشقون الجمال، وفوق ذلك كله يمجدون العقلانية والوطن واللغة والدين.

والناس جميعهم يستوحون هذه القيم الكونية، ويرفعون من شأنها.

لقد تغير العالم جذرياً خلال القرن الماضي. وارتفع مستوى الحياة بتأثير التقدم الهائل في العلوم والتقانة. واستطاعت الاكتشافات العلمية في مجال الطب قهر الأمراض العضال المزمنة التي كانت تهدد الإنسان والإنسانية. واستطاعت الإنسانية أن تحقق ثورات متعاقبة في مجال الاتصال والمعلوماتية التي أحدثت تغييراً مذهلاً في بنية العلاقات والتصورات الإنسانية. لقد تطور استخدام الإنترنت بطريقة مذهلة، واستطاعت هذه الوسيلة الاتصالية المذهلة أن تغير في وسائل تفكيرنا وتفاعلنا مع الكون الإنساني برمته. وقد شكلت هذه الاكتشافات والاختراعات والثورات والطفرة أفضل ما عرفته الإنسانية في القرن العشرين.

وإذا كان هذا هو الجانب المضيء للقرن العشرين فإن جانبه المظلم يتمثل في الحروب والصراعات الدموية الكبرى والصغرى التي أودت بحياة ملايين وملايين البشر. فالحروب التي شهدتها القرن الماضي كانت أكثر دموية من كل الحروب التي شهدتها الإنسانية عبر التاريخ، وكان عدد الضحايا أكبر بألاف المرات من عدد الضحايا الذين سقطوا في العصور القديمة والوسطى مجتمعة. واستطاعت الحرب الباردة التي فرضتها القوى الكبرى، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، أن تدفع الإنسانية نحو العدم. ومن حسن الحظ أن هذه الحروب قد وجدت نهايتها مع نهاية القرن الماضي، ولكن ذلك لم يمنع الإنسانية من التورط في حروب إقليمية ومحلية مريعة ومأساوية.

لقد شكل النصف الثاني من القرن الماضي مهاد ولادة أزمة إنسانية مخيفة وفتاكة، تمثلت في انفجار الحياة الأسرية وتفكك الروابط العائلية الأخلاقية والإنسانية. وتأخذ هذه الأزمة صورة وباء ينتشر ويزمجر في كل مكان من بلدان المعمورة. فالعنف الزوجي، والخianات بين الأزواج، والعنف الموجه ضد الأطفال، والطلاق، والتفكك العائلي أصبحت ظواهر عامة وشائعة في كل مكان. فالأطفال يبتعدون عن آبائهم، وينفصلون عن أمهاتهم، ويغيب الاحترام والتفاهم بين الأزواج وفي العائلة إلى حد كبير.

وهنا يبدو عبثاً الاعتماد على الازدهار الاقتصادي والحريات السياسية من أجل تحسين الأحوال الأسرية والأخلاقية في البلدان النامية. وهذا يعني أنه يجب علينا أن نبحث خلف الأزمة العائلية عن سبب وجيه وجوهري آخر غير الأسباب الاقتصادية.

فالتفكك العائلي الذي سجل أرقامه القياسية خلال العقود الأخيرة من الزمن، أدى إلى ارتفاع كبير في مستوى المعاناة الشبابية، وزاد في مشكلاتهم وصعوبات حياتهم. فالشباب تحت تأثير هذا التفكك يفتقدون المعايير الأساسية للحياة الأسرية، وهذا الأمر دفعهم إلى دائرة الأزمات، ووضعهم في خضم المشكلات العاتية. لقد اندفع الشباب في البلدان المتقدمة، تحت تأثير الحريات والثراء، إلى تعاطي المخدرات وممارسة العنف، والإسراف في اللهو والمتعة والجنس. واستطاع الشباب الغربي أن يولد ثقافة شبابية جديدة قائمة على المتعة والإدمان والجنس والإباحة، وأن يُصدّر ثقافته هذه إلى مختلف شرائح الشباب في مختلف أنحاء العالم عبر وسائل الاتصال المتاحة، ولاسيما الشبكة العنكبوتية والتلفزة والميديا، وغير ذلك من وسائل الاتصال (وطفة، 2009).

ومن الواضح تماماً أنه يمكن للتربية الأخلاقية أن تواجه إلى حد كبير ثقافة العنف والإدمان والانحلال والجريمة عند الشباب، ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى ثلاث مؤسسات تربوية قادرة على المبادرة الأخلاقية وهي: الأسرة، والمدرسة، والمؤسسة الدينية. وتفيد الملاحظات الجارية أن المدرسة لم تتقن فن التربية الأخلاقية وتأصيل القيم الإنسانية حتى اليوم، ولم تستطع أداء دورها التاريخي في هذا الميدان، فالأسرة - كما أوضحنا - تعاني من التفكك والتصدع والانهييار، أما المؤسسات الدينية فإنها تعاني من مشكلات التصلب التعصب والتطرف التي نلاحظها في كثير من أصقاع العالم. وهذه الوضعية تجعلنا إزاء أزمة مجتمعية أخلاقية تربوية خانقة بامتياز. فالمجتمعات الإنسانية المعاصرة تواجه مأزقاً تربوياً تاريخياً في جوهره، وهذه الأزمة ترتبط بالظروف الاجتماعية والتاريخية التي تمرّ بها المجتمعات المعاصرة. وينبني على ذلك أن هذه الأزمة الأخلاقية تؤدي إلى توليد عدد كبير من التحديات والمشكلات الاجتماعية المعقدة جداً، والمزمنة دائماً، بحيث إن الحكومات تلهث وراءها دون جدوى، عاجزة عن مواكبة توالدها وتعاضلها وتسارعها المستمر والدائم.

وبالعودة إلى دور الأوضاع الاقتصادية يمكن القول إن تحسن الأوضاع الاقتصادية لم يُجدِ نفعاً في خفض مستويات الأزمة الأخلاقية في المجتمع. لقد بينت الإحصائيات والدراسات الجارية في الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحقيقة بوضوح كبير، وذلك عبر المقارنة بين التحسن في الأوضاع الاقتصادية وارتفاع مستوى الجريمة والعنف. لقد بينت الإحصائيات الجارية في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين عامي 1960 و1990 أن الولايات المتحدة قد زادت من الميزانية الاجتماعية بنسبة 500% خلال هذه الفترة، ولكن تلك الزيادة تراكمت بزيادة مماثلة لها في مستوى الجريمة والعنف والإدمان والمخدرات، حيث بلغت نسبة الزيادة في هذه الجرائم 500%. وهذا يعني أن التحسن الاقتصادي لم يؤدي إلى تراجع مستويات الجريمة والعنف، حيث تبين التفاصيل الإحصائية في نفس الفترة أن نسبة الولادات غير الشرعية قد زادت 400%، كما زادت نسبة الطلاق 400%، وارتفعت نسبة الانتحار بين الشباب إلى 200%، وذلك كله في الفترة المذكورة (Benneth, 1991). فالمليارات التي أنفقت في البرامج الاجتماعية التنموية لم تكن ذات تأثير كبير في الأخلاق والقيم. فالمال يؤثر دون أدنى شك، ولكنه لا يستطيع إيجاد الحلول الجذرية للمشكلات الأخلاقية.

وفي دائرة هذه المواجهة، يرى عدد كبير من المسؤولين أنه يجب العمل على معالجة جذرية لهذه الأزمة من حيث تنبت وتنطلق من أجل احتواء نتائجها وتأثيراتها. فالمشكلات الأخلاقية تأخذ صورة تحديات حيوية ذات طابع داخلي سيكولوجي وتربوي بالدرجة الأولى. والمسألة برمتها ترتبط بقضايا وجدانية روحية أخلاقية تدور حول القيمة الأخلاقية، أي: ما هو جيد وما هو سيئ؟ ما هو صحيح أو خطأ؟ ما هو خير أو شرير؟ وتلك هي أسئلة أخلاقية بالطبع والجوهر.

كتب المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (1889-1975) Arnold Toynbee في كتابه «حضارة على المحك» La civilisation à l'épreuve يقول: «كلما ازدادت قوتنا المادية تنامت حاجتنا إلى القدرة الروحية، وذلك من أجل استخدام قوتنا الافتراضية طلباً للخير،

ورفضاً للشر والرذيلة... ونحن لم يكن لدينا أبداً هذا المستوى الروحي المناسب كي نوظف طاقتنا المادية في المسار الصحيح؛ ولذا فإننا نعاني اليوم من انحطاط أخلاقي أكبر من أي وقت مضى عبر العصور التاريخية السابقة (Toynbee , 1951).

ويمكن القول بطريقة مجازية أن جوهر المشكلة الإنسانية يكمن في عمق الكائن الإنساني نفسه، وهذا الأمر يجب قوله والإعلان عنه. ويتأتى أنه لا يمكن أبداً معالجة المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الأزمة الأخلاقية بحلول تكنولوجية أو حكومية. فالمجتمع الجيد لا يمكن أن يكون كذلك إلا من خلال التربية الأخلاقية التي تؤدي إلى تنمية الشخصية وتأصيلها بالقيم الإنسانية والروحية الخلاقة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكن الوصول إلى هذه الغاية؟ وما دور التربية في عملية بناء المجتمع ومواجهة التحديات الأخلاقية الاجتماعية؟

إن كل ما نؤديه ونفعله في الحياة يستند إلى التكوين الأخلاقي أو الطبع الأخلاقي للشخصية. فأخلاق المرء تحدد للإنسان ما يجب عليه أن يفعل، وكيف يمكن أن يوظف قدراته وإمكانياته، وهذا الأمر يؤكد الأهمية الكبرى للتربية الأخلاقية التي تشكل طباع المرء وعقليته، فالتربية في الأزمنة القديمة كانت تؤدي دوراً كبيراً بوصفها أداة فعالة في تثقيف الأفراد وإعدادهم أخلاقياً، أما التربية الحديثة كما تبين الدراسات الجارية فتفتقر إلى البعد الأخلاقي في مختلف أوجه فعاليتها المختلفة.

ومع ذلك كله يمكن القول في هذا السياق: إنه يمكن للتربية في مجتمع تعددي وديمقراطي أن تبتث القيم الكونية العامة دون أن تقلل من أهمية الحقوق الفردية والخاصة للأفراد والجماعات فيه. ويمكن أيضاً الحديث عن تربية متوازنة تمكن من بث القيم والمهارات والمعارف بطريقة متكاملة وأصيلة، بحيث تتم المحافظة على البعد الأخلاقي، وتكوين الخصائص الإنسانية التي تعطي الإنسان معناه ودلالته الإنسانية.

أولوية التربية الأخلاقية:

تتضح أهمية بناء العقلية الإنسانية عندما نتفحص طبيعة الكائن الإنساني نفسه. فالإنسان يتكوّن من جانبين أساسيين: الجسد أو التشكيل الفيزيائي لوجوده أولاً، ثم النفس أو الجانب السيكولوجي والمعرفي ثانياً. وهذه الثنائية في تكوين الإنسان تتطلب نوعين مناسبين من القيم. فالجسد عالم الرغبات والميول والغرائز والحاجات البيولوجية، ويرتبط بحاجات مادية، مثل: الحاجة إلى الغذاء والماء والدفء والراحة. وهذه الحاجات تدفع الإنسان إلى البحث عن أفضل السبل لتلبيتها وإشباعها وتأمين الراحة والطمأنينة.

أما فيما يتعلق بالحاجات الروحية فإن إشباعها رهين القيم الأخلاقية والروحية، مثل: الحقيقة والجمال والخير والحب والواجب. وهذا يعني أن البحث عن هذه القيم وتمثلها يؤدي إلى حالة من الإشباع والرضا الداخلي لدى الإنسان.

كثير من الناس يعتقد أن البحث عن القيم المادية وتمثلها يحقق نوعاً من الرضا الداخلي، ومع ذلك لا يمكن للإنسان أن يكتفي بسعادة زمنية مؤقتة زائلة، أي: السعادة التي توفرها عملية إشباع الحاجات المادية. وهذا يعني أنه لا بد من الاهتمام بالجانب الروحي الذي لا

يمكن إهماله بأي حال من الأحوال. وهنا يكمن دور التربية المتوازنة التي يتوجب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار تلبية الاحتياجات الثنائية للإنسان وتحقيق التوازن بينهما، أي: احتياجات الروح واحتياجات الجسد. وتأسيساً على هذه الرؤية التربوية المتعلقة بضمان حاجات الروح والجسد يمكن للتربية أن تأخذ مسارها الصحيح في تربية الأبناء والناشئة تحقيقاً لسعادتهم الحقيقية التي تتميز بطابع الديمومة والاستمرار.

ويمكن القول في هذا السياق: إن التربية تشتمل على مسارين أساسيين: المسار الأخلاقي الذي يتقصى القيم الروحية الأخلاقية، مثل: الحق والخير والجمال والحب، وهي القيم التي تشكل البوتقة الأساسية لبناء الشخصية الإنسانية هذا من جهة؛ والمسار المادي العملي الذي يعنى بإشباع القيم المادية لدى الإنسان (التعليم، والتأهيل التقني المهني، والتربية الفيزيائية والرياضية)، وهذا التعليم يسعى إلى تحقيق أهداف عملية مهنية من أجل ضمان إشباع الحاجات المادية لدى الفرد.

وبالمقارنة، تبدو التربية الأخلاقية أكثر أهمية وخطورة من التربية المادية والعملية، وهي - أي: التربية الأخلاقية - تعمل في جوهرها على تحقيق التوازن بين الروح والجسد. فالروح يجب أن توجه الجسد، وتنظم الميول الطبيعية والغرائزية في الإنسان، وعلى هذا المنوال فإن التربية الأخلاقية معنية بضبط وتوجيه المعارف والخبرات العملية كما المواهب والقدرات في المسارات الأخلاقية الأمثل. وإذا لم يحدث هذا التوجيه فهذا يعني أن الإنسان يعيش حالة عدمية أنانية مفرغة من كل المضامين الأخلاقية والإنسانية. وهنا يجب أن نعترف بأن المجتمع المعاصر يبالغ في توظيف تقاناته ومعارفه بطريقة مادية وأنانية، وهنا تكمن إحدى أهم المعضلات الأخلاقية في المجتمعات الحديثة (الجلاد، 2007).

فالتربية تعمل في جوهرها على نقل المعرفة من جيل لآخر، وهدف التربية الجوهرية يكمن في تمكين الإنسان من تحقيق طموحاته الإنسانية والأخلاقية، وهنا يوجب على التربية أن تؤدي المهمة الصعبة التي تتمثل في تحويل المعارف الإنسانية إلى الأجيال من جهة، والعمل على تحقيق القيم العليا للثقافة من جهة أخرى. فالتربية تعمل على تأصيل القيم الأخلاقية، وتمكين الناشئة من الإحساس بالمسؤولية من أجل التحضير لمستقبل المواطن والمواطنة، حيث يتمكن كل فرد من تمثيل حقوقه وواجباته على نحو أمثل في دائرة المجتمع والحياة الاجتماعية. ويمكن اختصار هذه المسؤولية التربوية بالقول: إن التربية معنية في جوهر الأمر بتحقيق النمو العقلي والأخلاقي في دائرة من التوازن والتكامل بين متطلبات الروح والجسد.

سقوط القيم التقليدية:

شهدت القيم التقليدية في الغرب تحديداً تراجعاً مع بداية السبعينات تحديداً، حيث لعبت التربية الجديدة دوراً حيوياً في تدمير الأنساق التقليدية للقيم الغربية. ففي هذه المرحلة، التي عرفت بمرحلة الثورة الجنسية وانتشار المخدرات، عمل الشباب على مناهضة كل أشكال السلطة، ورفض كل القيم التي ترتبط بها. وضمن هذه الموجة الراضة للقيم، أسقط الشباب مفهوم القيم المطلقة ورفضوها، وأحلوا مكانها مفهوم القيم النسبية الأخلاقية. وفي دائرة هذا الرفض الشامل للأنظمة الأخلاقية القديمة، أصبحت النزعة الفردية هي

المعيار الذي يُحتكم إليه في المستويات الأخلاقية. وفي عمق هذا التوجه الفردي تقدمت النزعة الفردية على مبدأ المسؤولية، وتقدم الحق الفردي على الواجب الإنساني في هذه المجتمعات. وخرجت قيم التضحية والواجب والقداسة والجمال من قاموس القيم الجديد.

واستطاع هذا التحول العنيف في منظومة القيم والتصورات أن يحدث اهتزازاً كبيراً للمعايير التربوية والأنظمة التربوية التي كانت قائمة. وفي دائرة هذا التموج الكبير في المعايير اتخذ عدد كبير من المربين موقفاً محايداً من القيم، من منطلق أنه لا يحق لهم فرض قيمهم الخاصة على تلامذتهم، فلكل الحق في أن يتبنى قيمه الخاصة، وعلى الجميع واجب احترام الآخر، وما يؤمن به من قيم فردية خاصة. وقد فرض هذا التوجه أجواء الريبة والشك وعدم الثقة في داخل الصفوف المدرسية؛ حيث فقد المعلم دوره بوصفه نموذجاً أخلاقياً وموجهاً تربوياً، واقتصر دوره هذا على صورة موجّه بسيط يؤدي دوره المحدد في عملية التعلم.

وقد أثرت هذه التوجهات الجديدة في تبني مناهج تربوية جديدة مثل منهج التعريف بالقيم (la clarification des valeurs) الذي انطلق في عام 1966 على أثر صدور كتاب لويس راس (Louis Raths) بعنوان: التعليم والقيم (Values and teaching). وقد تضمن هذا الكتاب دعوة تربوية للمعلمين إلى رفض التدخل في عملية فرض القيم الأخلاقية على الطلاب، وحثهم بدلاً من ذلك على توضيح موقفهم من قضية ما تتميز بالخصوصية. وفي دائرة هذا التوجه الجديد للقيم بدأت فكرة تقدير قيم الآخر مهما تكن على أنها أمر يجب أن يحظى بالتقدير والاحترام. ومن هذا المنطلق بدأت تترسخ عملية رفض للتوجهات التربوية التي تعطي للكبار الحق في فرض قيمهم الأخلاقية على الأطفال والناشئة، ويشمل هذا الرفض رفضاً لكل محاولة تربوية يحاول فيها المعلمون والمدرسون التأثير في النظام القيمي والأخلاقي لدى الطلاب أياً كانت القيم والمبادئ الأخلاقية التي توجههم. فالخيارات الأخلاقية والقيمية يجب بحسب هذا التوجه التربوي الجديد أن تبقى مسألة تفضيلات فردية وقرارات شخصية تنبع من قناعات الفرد ورؤاه الخاصة به.

ويمكن أن نسوق بعض الأمثلة التي تتعلق بعملية توضيح القيم:

- المعلم يسأل إحدى طالباته قائلاً: ليلي، ما رأيك بالحب قبل الزواج؟
- ليلي: اعتقد بأن الزواج علاقة مقدسة، ويجب على الرجال والنساء احترام هذه العلاقة وعدم إقامة أي علاقة جنسية قبل الزواج.
- المعلم: جيد ليلي.
- المعلم: أحمد ما رأيك بذلك؟
- أحمد: بالنسبة لي أنا أرى أنه يجب على المرء أن يكون حراً في إقامة علاقة قبل الزواج، ولا سيما إذا كانت العلاقة القائمة بين الطرفين عاطفية.
- المعلم: جيد أحمد، لقد وضحت القيمة التي تراها في هذا الأمر.

وهذا الموقف يعني أن احترام قيم كل شخص وتقدير رأيه أياً كان يعني أن المدرسة لا تعلم قيماً، ولا تريد أن ترسخ أخرى، بل تقوم بتوضيح آراء الآخرين وأفكارهم ومواقفهم بكل بساطة. وكان لهذا المنهج أثر سلبي كبير على التكوين الأخلاقي للجيل الجديد،

وانعكس على عدد كبير من الخريجين من المدارس والجامعات الذين وجدوا صعوبة كبيرة في التمييز بين الخير والشر؛ وذلك لأن هذا الأمر أي: تحديد ما هو خير وما هو شر كان قد تُرك لهم ولتجاربهم الخاصة وقناعاتهم الفردية دون تأثيرات خارجية تأتي من المعلمين والمناهج.

وقد أدت هذه المنهجية التربوية إلى تأسيس النزعة النسبية في التربية، وإلى تدمير المعطيات التقليدية للتربية الأخلاقية التي كانت سائدة في مراحل سابقة. وترافق ذلك التوجه إلى رفض القيم التقليدية بوصفها غير واقعية أو عملية، وخارج دائرة الموضة الجديدة للعصر الجديد. ويتضمن هذا الاتجاه رفضاً للسلطة الأبوية وللدور الكبير الذي يؤديه الآباء في عملية التربية الأخلاقية للأبناء. فالمدرسة وفقاً لهذه المنهجية بدأت تحض التلامذة والطلاب على مناقشة آراء الآخرين ونقدها مهما يكن مصدرها، والسلطة التي تصدر عنها.

وقد شهدت هذه المرحلة موجات جديدة من التربية الأخلاقية التي تدعو إلى رفض كل أشكال السلطة التقليدية، وما ينجم عنها من تصورات ورؤى وأفكار. وكانت هذه الموجة الجديدة تشكل سعياً تربوياً شاملاً لتنمية الروح النقدية عند التلاميذ والأطفال والناشئة. كما أنها كانت تدفع الطلاب إلى تحد مختلف التقاليد والقيم السائدة التي تفرض نفسها في الساحة الفكرية في السبعينات من القرن الماضي. والهدف من هذه النزعة الجديدة العمل على تشجيع التنوع والتعدد القيمي والفكري في المجتمع رفضاً لكل أشكال التسلط والشمولية والرأي الواحد القائم على التعصب والانغلاق. وقد فرضت هذه الأجواء التربوية الجديدة نمطاً جديداً من المناقشات الحرة حول مختلف القضايا والمشكلات والتحديات التي كانت تواجه الشباب والمجتمع في تلك المرحلة أي: في السبعينات من القرن الماضي.

وكان هذا النموذج التربوي مناسباً للعصر الحديث، ومعارضاً للتقليد القديم الممثل لزمناً الهيمنة الأبوية المباشرة. ففي المجتمعات الديمقراطية المعاصرة امتلك الشباب الرغبة في مناقشة قضايا مجتمعهم، وهذا ما كان متوقعاً منهم. وكان عليهم أيضاً أن يأخذوا موقفاً مناسباً من الأسس التربوية القائمة، وأن يعملوا على تربية أنفسهم دون الاكتفاء بعملية التشبع بالصرف بالمعلومات والمعارف المدرسية الجامدة.

ولكن ومن أجل تحقيق النجاح لهذه التوجهات التربوية الحديثة توجب على روادها أن يمارسوها في أجواء أخلاقية، وكانوا في أمس الحاجة إلى الأطر الأخلاقية لهذه التربية الجديدة. وهنا يمكن القول بأن هذه التربية الجديدة يمكن أن تتحول إلى تربية كارثية ما لم تعمد بالقوانين والقيم الأخلاقية الواضحة، وهذا يعني أنه يجب التمييز، على الأقل، بين القيم المعادية للمجتمع والقيم البناءة، فوضع القيم البناءة والهدامة على قدم المساواة أمر يندرج بالخطر والكارثة.

بعد أربعة عقود على انطلاق التربية القائمة على الحرية القيمية اكتشف عدد من المفكرين والمربين عدمية هذه الحرية الأخلاقية. لقد أوضح هؤلاء المفكرون أن تشجيع الشباب على التفكير النقدي، والتعبير بحرية عن القيم التي يؤمنون بها، لم يؤدي في النهاية إلى تشكيل الروح الأخلاقية لديهم، ويعود ذلك إلى فقدان المعايير الأخلاقية والمرجعيات القيمية التي

يجب الاستناد إليها في عملية البناء القيمي والأخلاقي للناشئة والشباب. فالتربية الحرة أدت في نهاية الأمر إلى الابتذال الأخلاقي والانحطاط في القيم. فالتربية الأخلاقية الحرة تتعامل مع الناشئة بوصفهم راشدين يمكنهم التعبير عن رأيهم وقيمهم بحرية، وهذا الأمر يخالف الواقع التربوي للأطفال الذي لا يمتلكون في جوهر الأمر نضجاً أخلاقياً أو ثقافياً يمكنهم من تحديد قيمهم واتجاهاتهم الأخلاقية. وقد تجاهلت هذه التربية أن الأطفال والصغار والناشئة في حالة ضياع أخلاقي، وأنهم يحتاجون إلى المساعدة من أجل فهم البيئة الأخلاقية التي تحيط بهم، واختيار القيم التي تناسبهم.

ويمكن القول في هذا السياق إن التربية الأخلاقية التقليدية قد فقدت مصداقيتها وتأثيرها في العالم بتأثير مجموعة من العوامل والأسباب، أهمها:

- الحضور المظفر للنسبية الأخلاقية التي فرضت قانونية الحياد الأخلاقي في العملية التربوية.
- هيمنة التعددية في المجتمع والثقافة الحديثة التي أدت إلى رفض القيم الكونية والشمولية.
- الحذر المتنامي من خطر الأحادية الأخلاقية التي فرضتها العقيدة الدينية في المدارس التي تبث قيماً أخلاقية شمولية وحييدة الاتجاه لتشكل نموذجاً أخلاقياً على نمط واحد.
- اتفاق عدد كبير من المثقفين والناس على قبول التعددية بوصفها الحل الأمثل لقبول التنوع الكبير القائم في الحياة الاجتماعية والثقافية، ومن غير ذلك فإن المجتمع سيتجه إلى التعصب والجمود والانغلاق الفكري والمذهبي.

التربية التهذيبية الجديدة:

إزاء وضعية الاغتراب الأخلاقي والضياع الذي أفرزته التربية الأخلاقية في السبعينات (تربية التعريف بالقيم)، وفي مواجهة التذمر الكبير ومشاعر السخط المتعاظمة تجاه التربية الأخلاقية الحرة، انبرى عدد من المفكرين لمهاجمة الأوضاع التربوية القائمة، وتوجيه النقد إلى مذهب التربية الأخلاقية الحيادية السائد في المدارس الحكومية العامة. واتجه عدد كبير من الأفراد إلى ترك المدارس الحكومية واللجوء إلى المدارس الخاصة التي تكيفت مع الحاجة إلى تربية أخلاقية تهذيبية جديدة، واستطاعت هذه النزعة الجديدة في التربية أن تفرض نفسها في المدارس الحكومية في التسعينيات من القرن الماضي.

ويمكن في هذا السياق تعريف التربية الأخلاقية التهذيبية، أي: هذه التي يطلق عليها تربية الطباع بأنها: نسق من الجهود المنظمة التي تهدف إلى بناء الشخصية على أساس من القيم والفضائل الأخلاقية الضرورية من أجل الفرد والمجتمع. وقد شهدت هذه التربية انطلاقها الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تبنت برامج تربوية أخلاقية منظمة قائمة على مبدأ التربية التهذيبية الجديدة. وهناك تقديرات بأن ثلثي المدارس الأمريكية قد بدأت تتبنى هذا المنهج الجديد في التربية الأخلاقية.

القيم الأخلاقية الكونية:

تتبنى التربية التهذيبية الجديدة القيم الكونية العليا، وهي القيم العليا التي تمكّن الفرد من القدرة على تحديد المسالك الأخلاقية، من حيث هي خيرة أو شريرة، وتدفع أصحابها إلى فعل الخير، وهذا يعني أن هذه القيم تعرف بمسالك الخير، وتدفع الفرد إلى السير في دروبه، وهي التربية التي تمتلك طاقة تنويرية من جهة، وطاقة عملية، أي: أنها تحض الأفراد على معرفة القيم، ومن ثم على النشاط والعمل بمقتضى التوجهات الخيرة لهذه القيم الإنسانية الكونية العليا.

والتربية على القيم العليا تركز على قيم الشرف والحق والخير والعدالة والحقيقة، وهذه القيم تمتلك في ذاتها على طاقة إلزامية. فالقيم توجهنا إلى ما يجب علينا أن نفعله، سواء أكانت لدينا الرغبة أو لم تكن. وتتميز هذه القيم عن غيرها بأنها تفرض على المرء سلوكاً أخلاقياً بالضرورة.

وهذا يعني أن القيم الأخلاقية تصنف إلى قيم كونية عامة شمولية، وإلى قيم جزئية لا تتصف بعموميتها أو شموليتها. فالقيم الشمولية تتمثل في قيم: الحرية، والمساواة، والشجاعة، والكرم، والحق، والخير، والعدالة، والشرف، والكرامة، واحترام حق الحياة والمحافظة عليها؛ وهي قيم يشترك فيها جميع الناس دون استثناء، كما أن جميع الناس يقدرونها ويعلمون من شأنها ويهتدون بها في مسيرة حياتهم الإنسانية؛ وذلك لأنها ببساطة تعبر عن جوهر الإنسان، وعن أهليته الإنسانية بوصفه إنساناً.

والسؤال هنا ما المعايير التي يمكن أن تُعتمد للتعرف على القيم الشمولية؟

1. القيمة الشمولية قيمة تبادلية، بمعنى أنها تريد للشخص أن يعامل الآخرين كما يحب أن يعاملوه. وهذا يتمثل في قول الإمام علي كرم الله وجهه: «اجعل نفسك ميراناً للحق بينك وبين الناس، فأحبّ لهم ما تحبه لنفسك، وكره لهم ما تكره لها». ومثال ذلك احترام حق الملكية، لأن الإنسان أي إنسان لا يريد لأحد أن ينتهك ملكيته بالمقابل.
2. قاعدة التعميم والتي تتمثل في أن يفعل الناس الخير، لأنه خير في كل مكان وفي كل زمان.
3. قاعدة البداهة الأخلاقية: فالقيم الكونية تنبع من صميم الوعي الإنساني، وتصدر صدوراً عفوية. حتى الأطفال يدركون بالبداهة والفطرة القيم الأخلاقية الكونية العليا التي ترمز إلى الحق والعدالة والخير، فالطفل الذي يضرب آخر في ساحة المدرسة سرعان ما يبصر فعلته بالقول: إن الطفل الآخر هو الذي بدأ الضرب أولاً، وهو يدرك عفوية بأن البادي أظلم، وإنه يستحق العقاب أكثر.
4. تتميز القيم الكونية بسمتها الزمنية على المدى الطويل، وهي تؤكد على مزايا أفضل، فالقول المأثور بأن الصدق هو الأفضل دائماً وحبل الكذب قصير، يمثل مبدأ يعلمنا أيضاً أن الصدق على المدى البعيد تكون له آثار جيدة، أما الكذب فقد تكون نتائجه مدمرة ومخيبة للأمل.
5. القيم الكونية العليا موجودة في مختلف أرجاء المعمورة كما في كل الأزمنة، وفي مختلف الثقافات، ومنها كما أشرنا فضائل: الصدق والمحبة والأمانة والشجاعة والواجب.

6. من شأن القيم الكونية أن تعزز في الفرد السمات الأخلاقية، فتجعلها في الإنسان طبعاً وسجية عفوية.

فالمجتمعات الإنسانية مهما اختلفت وتباينت تجتمع على عدد من القيم العليا؛ لأن هذه القيم تتأصل في الطبيعة الإنسانية نفسها. فالتضحية - كقيمة المخاطرة بالنفس من أجل إنقاذ طفل يغرق - هي قيمة كونية يجري تبجيلها في الغرب والشرق، وفي مختلف الثقافات الإنسانية، في المجتمعات القديمة والحديثة، في المجتمعات الصناعية والزراعية، كما في المجتمعات البدائية والمتحضرة، وكأن هذه القيمة أصيلة في الطبع الإنساني، وتعبر عن أعمق ما في طبيعته من جمال وسمو أخلاقي.

وتشكل هذه القيم الأخلاقية الكونية منطلق التربية الأخلاقية التطبيقية الجديدة. ومن منطلق هذه القيم الكونية استطاعت التربية الأخلاقية الجديدة أن تواجه الانتقادات التي تدفقت من أنصار التربية الأخلاقية النسبية، فالقيم الكونية تشكل الأساس الحيوي للتربية الأخلاقية في المؤسسات التعليمية الدينية.

أهداف التربية الأخلاقية:

كيف يمكننا تحقيق التوازن الخلاق بين جناحي التربية الأخلاقية الروحية والجسدية من أجل بناء الشخصية الإنسانية وتحضيرها للحياة المهنية؟

لقد أوضحنا أن القيم الأخلاقية يمكنها أن توجه التربية الأخلاقية نحو التكامل والتوازن بين الروحي والجسدي أو بين العاطفة والعقل. وإنه لمن البدهة بمكان أن نقول: إن التربية الأخلاقية تبدأ منذ الولادة ولا تتوقف حتى نهاية الإنسان. وفي هذا المسار يتوجب على التربية أن تحقق توازنها مع مختلف أنواع التأهيل والتدريب في الوسط العائلي وخارجه أيضاً. وهذا التصور يشجع المربين والآباء والمعلمين على أداء دورهم الأخلاقي. فالتربية الأخلاقية التهذيبية كما يقول توماس ليكونا (Thomas Lickona): «تتجه إلى تحقيق هدفين أساسيين: مساعدة الشباب على أن يكونوا أذكاء وعقلاء من جهة، وخيرين من جهة أخرى» (Lickona, 1991). ومما لا شك فيه أن التربية الأخلاقية التهذيبية تسعى إلى إعداد أناس مؤهلين وقادرين على تقديم أشياء كثيرة للآخرين. ويمكننا في هذا السياق تصنيف التربية الأخلاقية التهذيبية إلى ثلاثة مستويات أساسية:

- أهداف فردية، وتتمثل في إيصال الفرد إلى نضجه الأخلاقي وكماله الإنساني.
- أهداف اجتماعية، وتتمثل في تمكين الفرد من بناء علاقات أخلاقية وعاطفية مع الآخرين بدءاً من الأسرة التي ينتمي إليها.
- أهداف مهنية، وتتمثل في تمكين الفرد من أن يصير مواطناً منتجاً وملتقفاً، وفاعلاً في الحياة الاجتماعية للمجتمع الذي ينتمي إليه.

الهدف الأول - ازدهار الشخصية وكمالها:

تحقيق الازدهار والتكامل في الشخصية يعني من حيث المبدأ تهيئة القوى الداخلية للفرد نحو السلوك الصحيح. وهذا يمثل مختلف القوى والاتجاهات والعادات التي تعمل

على تحقيق المرونة والبساطة في الفعل الأخلاقي، والممارسة الإنسانية القائمة على نسق القيم العليا. وفي هذا المسار فإن كل فعل أخلاقي وكل نجاح قيمي يحمل الطابع الأخلاقي للفرد. ويمكن الاستدلال على الطابع الأخلاقي للفرد من الآثار الناجمة عنه، فالطبع الجيد يتمثل في حب الآخرين، وحب الإنتاج والإنجاز في المجتمع، وهذا يعني أن الطبع الأخلاقي هو عماد العملية الأخلاقية للفرد برمتها.

عندما نصف فرداً ما بالقول: "إن طبعه جيد" فهذا يعني أنه يمتلك قلباً طيباً؛ فالقلب إذن يقع في عمق التكوين الأخلاقي للشخصية الإنسانية، ويمثل مركز القيمة الأخلاقية فيها. وينبني على هذا أن القلب يشكل منبعاً لكل الفضائل الأخلاقية في الإنسان، ولا سيما العلاقات الإنسانية مع الآخرين. فالقلب يمنحنا القدرة على الحب والتعاون والتضحية والفرح، كما يمنحنا مختلف المشاعر الإنسانية السامية والخلاقة. فالحب والعلاقات بين الناس يشكّلان حاجات إنسانية لا تقل أهميتها عن الحاجة إلى الطعام والسكن.

فالحب ينتسب إلى أرومته الأخلاقية؛ لأنه يشكل مصدر العلاقة الإنسانية مع الآخر، والإنسان يضحّي ويموت من أجل الحب. ونحن لا نستطيع أن نحقق ذواتنا إلا من خلال علاقتنا بالآخرين، وهذا الفعل أخلاقي في جوهره وطبيعته. وفي بحثنا عن الحب فإن قلوبنا ستكون مفعمة بالسعادة إذا كان هذا الحب يقع في منارة الأخلاق والقيم. والقلب يمتلك قانونية نمائه الخاصة التي تبدأ منذ مرحلة الطفولة، ومن خصائص نموه أنه لا ينمو بطريقة آلية كما هو حال الجسد، بل يشكل حقلاً إنسانياً خاصاً يحتاج إلى أن يصلق وينمي ويتشكل بالحب، ومع الحب، ومن أجل الحب الكوني. والقلب يحتاج في عملية نمائه إلى التجارب الإنسانية الخلاقة، فلا يمكن للقلب أن ينمو من غير تجربة الحب التي تنسج له علاقته مع الكون الخارجي أي: مع الآخر. وعندما يتقف القلب ويصلق يأخذ هيئة أخلاقية، ويتحول إلى طبع أخلاقي خير على الأغلب.

ومن أجل تنمية القلب بالحب وصلقه بالقيمة الأخلاقية لابد من اللجوء إلى العائلة التي تمثل البوتقة الأساسية لعملية نمائه وازدهاره، ويمكن للمدرسة أيضاً أن تلعب دورها في عملية بناء الفرد وصلقه على الحب والتضحية والبذل والعطاء. وهنا يمكن أن نتحدث عن تأثير المعلم في عملية نمو المشاعر الإنسانية والعاطفية عند الأفراد؛ لأن هذا التأثير الخلاق في المدرسة يتمّ جوهرياً عندما يغدق المعلم حبه الحقيقي على تلامذته وطلابه دون حدود أو قيود.

فالنضج الأخلاقي الأمثل يكون فعلياً عندما يستطيع الفرد تكوين علاقة محبة صادقة مع الآخرين، وعندما يستطيع العيش والتضحية من أجلهم. ومثل هذا النضج الذي يوحد بين النوايا والفعل يمكن الإنسان من مقاومة الغرائز الأنانية الأولية، ومن التضحية بها من أجل الآخر تحقيقاً للخير والحق والسلام. فكثير من الناس يعرف ما هو الحق والخير، ويتحدثون عنهما، ولكنهم لا يطابقون بين الفعل والقول أو بين المعرفة والعمل، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه النفاق والمنافقة والزيف الإنساني.

فالنضج الأخلاقي يعني أن يعيش الإنسان في وفاق كامل مع القيم السامية الخلاقة التي ارتضاها لنفسه على مقياس النمو الإنساني والأخلاقي. وهنا يتوجب على المعلمين

والآباء والمربين أن يؤدي دورهم التربوي بوصفهم نماذج أخلاقية يُحتذى بها، وأن يشكلوا من ذواتهم وسلوكهم مرجعية أخلاقية يهتدي بها الأبناء والأطفال والناشئة.

فالمهمة الأولى للتربية الأخلاقية تكون بالعمل على تنمية القلب الإنساني من أجل بناء شخصية الفرد على مبدأ الفضيلة في مختلف التجليات الإنسانية للفعل الأخلاقي في المستقبل. فتقافة القلب تتمثل في بناء الطبع الأخلاقي على مبدأ الخير، وتلك هي الخطوة الأولى للتربية التي تعنى بالقلب والمشاعر لتشكل منطلقاً إلى الخطوات التربوية الأخلاقية اللاحقة.

الهدف الثاني - بناء العلاقات المتوازنة:

يتمثل الهدف الثاني للتربية في تأصيل العلاقة بين الأخلاقية بين أفراد المجتمع. فالحب لا يمكنه أن ينفصل جوهرياً عن الأخلاق والقيم الأخلاقية، ولا سيما هذه التي تتعلق بالروابط الإنسانية مع الآخر. فالحب يعطي الإنسان إمكانية واسعة في بناء علاقات إنسانية متوازنة وخلاقة، وهذا هو ميدان العائلة المتحابّة والمتوازنة التي يمكنها ترسيخ أو اصر العلاقة مع الآخر عبر التربية الأخلاقية القائمة على المحبة.

ومن هنا يمكن القول: إن تعليم مبادئ السلوك ومعايير التصرف يشكل نواة الفعل التربوي الأخلاقي. فالطبع الأخلاقي يتشكل من خلال الممارسة الأخلاقية، ويقوم على احترام المعايير وآداب السلوك الأخلاقي بصورة مستمرة دون قطيعة أو انقطاع. والتربية الأخلاقية تقدم لنا الأسس المرجعية لتوجيه السلوك وبناء العلاقات مع الآخر على نحو أخلاقي، وفي هذا المستوى من التربية الأخلاقية يتوجب على الفرد أن يتمثل القوانين والمعايير الأخلاقية في السلوك والعمل والتفكير. والقاعدة الذهبية في هذا المجال تكمن في المبدأ الذي يقول: «تصرف مع الآخرين كما تريد أن يتصرفوا معك»، وهو المبدأ الذي يشكل مضمون وجوهر المرحلة الثانية من التربية الأخلاقية.

ففي العائلة يتوجب على الفرد أن يتصرف أخلاقياً بطريقة يحددها وضع الفرد في العائلة، وموقعه في نسق علاقاتها وبنائها: الأخ الأكبر، الأصغر، الأم، الأب، الجدة. وهذا التصرف يجب أن ينحو على منوال العلاقة التضحية، وعلى مبدأ المسؤولية في دائرة التكامل مع مختلف الأدوار العائلية، وهذا يعني المحافظة على قيم الإخلاص والوفاء والمحبة والاحترام لتحقيق التكامل الأخلاقي والإنساني بين أفراد المجموعة العائلية.

فالمدارس المعاصرة تتحمل عدداً كبيراً من المسؤوليات، وتشتمل على شبكة واسعة من العلاقات التربوية والإنسانية. والقاعدة التي يجب على المدرسة أن تنطلق منها تتمثل في تحقيق درجة عالية من التوازن التربوي مع الأسرة. فالتربية على المبادئ الأخلاقية تتم عبر نسق من الفعاليات التربوية المستمرة التي توجه السلوك، وتبني الاتجاهات، وتؤسس للآداب العامة.

وتشتمل هذه التربية في هذا المستوى على فن بناء التوازن الأخلاقي في نسق العلاقات القائمة في دائرة الحياة اليومية. وهذا يعني أن الفرد يتعلم عبر هذه التربية متى وكيف يتصرف إزاء الآخر في مختلف المواقف الحياتية، والشخص المثقف أخلاقياً يستطيع

وبسهولة كبيرة أن يتفاهم ويسلك مع الآخرين حتى وإن كانوا مختلفين وإياه في أشياء كثيرة.

فالمبادئ الأخلاقية ليست غاية بذاتها، بل هي وسيلة تهدف إلى بناء علاقات إنسانية خلّاقة، وتحقيق التوازن في بنية المجتمع. فقطع مسافة ما من مكان إلى آخر بسيارة سريعة وحديثة ليس مؤكداً أو مضموناً إلا باحترام إشارات المرور في الطريق، وكذلك هي الحال في مستوى العلاقات العائلية التي تؤدي دورها في تحقيق التوازن عندما يتم ذلك في إطار احترام القواعد الأخلاقية. ففي الأسرة، التي تتسم بالطابع الأخلاقي ينمو الحب والتراحم والتناغم بين أفراد الأسرة ويشكل هذا المد الأخلاقي منطلقاً للتفاعل الأخلاقي مع المجتمع.

فالتربية الأخلاقية تحقق التوازن بين المحبة والمبادئ الأخلاقية. فعندما يتفاعل الإنسان مع الحياة على مبدأ المحبة، ويراعي المبادئ والقيم، يحقق أعلى درجة من التوازن الأخلاقي الخلاق. فالحب يعني في النهاية الانشغال بالآخر، والتفاعل الوجداني معه على مبدأ التفاهم والتواد والتراحم. أما القواعد الأخلاقية فتبدو إلى حد ما صارمة، مثل: العدالة والحق والشرف والكرامة. وتحقيق هذا التوازن يبدو صعباً بين مطالب القلب، ومطالب العدالة، ولكن التربية الأخلاقية الأصيلة تستطيع تجاوز التناقض وتحقيق السلام بين المبادئ الأخلاقية الصارمة، والقيمة العاطفية الجياشة للحب الإنساني.

فعندما يغذي الحب قلب الطفل يتمكن من تذوق نبل المشاعر، فيصبح أكثر أصالة وخيراً. أما القواعد الأخلاقية فإنها تؤصل لسلوك خير ونبل، وتجعل من الإنسان خيراً وفاضلاً. والحب هو الذي يوقظ فينا الاهتمام بالآخرين يدفعنا إلى احترام القواعد الأخلاقية ومجارات السلوك الحسن، ومن ثم فإن مراعاة القوانين والقواعد الأخلاقية، يؤدي إلى توليد الثقة بالآخرين، ويمكن من بناء علاقات ثقة ومحبة وعدالة معهم.

وهنا في هذا المقام يجب تحقيق التوازن والتكامل بين التربية على المبادئ الأخلاقية والثقافة التي تصقل القلب وتنهض به. فالتربية التي تقوم على المبادئ والقواعد الأخلاقية دون شغف ودفء ومحبة تتحول إلى تربية شكلية مفرغة من مضمونها الإنساني. ويمكن للإنسان الذي يعايش هذه التربية الأخلاقية الصارمة أن يكون أخلاقياً ومهذباً، ولكنه سيفتقر إلى الشفقة والمحبة والحساسية الإنسانية. والإنسان، وسيكون في هذه الحالة جارحاً وعنيفاً مع الآخرين، حيث لا يمكنه أن يعبر وأن يستقبل حب الآخرين ورعايتهم.

وعلى خلاف ذلك كله فإن التربية المشبعة بالحب مع قليل من القواعد الأخلاقية يمكنها أن تؤدي إلى بناء أشخاص يفتقرون إلى القيمة الأخلاقية، والإحساس بالمسؤولية. وقد يكون المرء عاطفياً مع الآخرين ولكنه لا يستطيع إقامة علاقات اجتماعية فعالة ونشطة معهم؛ لأنه لا يمتلك تصورات حقيقة عن التضحية والولاء والمنابرة، وهي قيم ضرورية من أجل بناء علاقة أخلاقية متماسكة.

وما تقدم يومئ بأهمية بناء الطبع الأخلاقي على مبدأ التوازن بين قيم القلب من جهة وقيم العقل والوجدان من جهة أخرى، وذلك من أجل الدخول في علاقات إنسانية متوازنة ومتكاملة على أساس من القيم الأخلاقية الشاملة والكونية. فهؤلاء الذين تربوا على هذا الأساس يستطيعون إدراك البعد الأخلاقي للوجود كما يستطيعون بناء علاقات أخلاقية

بسهولة، ومن ثم يستطيعون تأسيس بيت الزوجية وضمان استقراره، ويصبحون في المستقبل آباءً جيدين، وهم في كل الأحوال يستطيعون العيش بسلام ووثام تحقيقاً للغايات العليا الأخلاقية.

ويمكننا في هذا المقام أن نعلن أن التربية الأخلاقية الحقّة تقوم على التكامل الفعلي بين ثقافة القلب وثقافة المعايير الأخلاقية، أي: ثقافة العقل، وأن هذه التربية مؤهلة بجدارة لبناء الروح الحقيقية للإنسان الخلاق المصقول أخلاقياً والمؤهل إنسانياً. ومثل هذه التربية تشكل فعلياً منطلق وعماد كل تربية حقيقة تريد أن تنهض بالفرد والإنسان والإنسانية.

الهدف الثالث. الإحساس بالمسؤولية وخدمة المجتمع:

نعني بتربية الإحساس بالمسؤولية تمكين الفرد من وضع إمكانياته الإبداعية كاملة في خدمة الجماعة والمجتمع. وهذا الأمر يتعلق بالقدرات والخبرات والإمكانيات التي يمتلكها الفرد، ومثل هذا الأمر يتعلق بالمهارات الأكاديمية للفرد في دائرة علاقته بالمجتمع. فالفرد يمكنه أن يحظى بنصيب كبير من المعرفة العلمية الأكاديمية في مجال العلوم الإنسانية والتطبيقية مثل العلوم الطبيعية والاجتماعية أو الرياضيات والهندسات والطب والحقوق... إلخ. وهذه العلوم ليست غاية بذاتها، بل إمكانيات توضع، ويجب أن توضع في خدمة المجتمع والإنسانية. فالفرد المؤهل علمياً قادر على تزويد مجتمعه بعلمه ومعرفته، والعلماء يشكلون مصادر حيوية كبرى لثراء المجتمع وتقدمه الإنساني. ولكن قدرة هؤلاء على خدمة مجتمعهم بعلمهم ومعارفهم تظل في حقيقة الأمر رهن التربية الأخلاقية التي تشكلوا في كنفها؛ إذ يجب عليهم من أجل أن تعمّ الفائدة أن يكونوا قادرين على تكوين صلات اجتماعية مميزة بزملائهم ووسطهم الاجتماعي وأسره، ومن يمت إليهم بصلة في مستوى المهنة كما في مستوى الحياة اليومية والاجتماعية. فالعمل الإبداعي للمفكرين والباحثين والعلماء والقادرين على العطاء في مختلف الميادين يمثل قيمة كبرى للمجتمع.

فثمة ارتباط كبير بين المعرفة العلمية والأخلاق، فالمعرفة أياً كان نوعها ومستواها يجب أن توضع في خدمة المجتمع، ومن أجل تحقيق تقدمه وازدهاره، ولا يمكن للمعرفة هذه أن توظف إنسانياً، ما لم توجه أخلاقياً، وهذا التوجه الأخلاقي غالباً ما يكون رهن التربية الأخلاقية التي تلقاها أهل العلم والمعرفة. فالطبيب يجب أن يكون أخلاقياً قبل أن يكون طبيباً، وكذلك هو حال المهندس والقاضي والميكانيكي، ومن غير البعد الأخلاقي لهذه المهن فإن المعرفة والخبرات تتحول إلى طاقة مدمرة في المجتمع، كالطبيب الذي يخدع مرضاه، والمهندس الذي يغش مبناه فيعرض الناس للموت والخطر، وهو حال الضابط الذي يخدم في الجيش، حيث يكون شرف الوطن هو أسمى ما يمكن أن يؤديه دفاعاً عن شعبه وأمته.

وهنا تبرز القيمة الأخلاقية لهذه المهارات والمهن، حيث تقتضي الضرورة أن يمتلك أصحاب الخبرات قلوباً بيضاء عامرة بالحب، وعقولاً مصقولة بالقيم من أجل الأداء الأخلاقي في مجال عملهم وإبداعهم.

فالأرض التي نعيش عليها هي الأم الحنون التي تمنحنا نسغ الحياة، ومن هنا يجب علينا بالضرورة الأخلاقية أن نعامل الطبيعة كما نعامل أمهاتنا، أي: بمحبة واحترام وإجلال وإكبار وتقدير. والعالم الطبيعي يمكن أن يعامل كامتداد طبيعي لأجسادنا

وجودنا الفيزيائي؛ لأن وجودنا مستمد في جوهره من الطبيعة الخلاقة التي أنجبتنا، ودفعت الحياة في قلوبنا ونفوسنا.

وفي هذا المقام يمكن القول: إن الإنسان الذي يمتلك روحاً أخلاقية أصيلة متماسكة، يشعر بالقدرة على حب الآخرين، ويشعر بأنه قادر على تثقيف نفسه، وصقل ملكاته، ليقدّم لمجتمعه كل ما يستطيعه من عطاء وعمل وإبداع، سواء أكان ذلك في مجال التكنولوجيا أم في مجال العلوم الإنسانية، أو في أي مجال علمي آخر. وهذا يعني في نهاية الأمر أن بناء أناس من هذا النوع المبدع الأخلاقي المؤمن برسالته الإنسانية يشكل نوعاً من الثراء الإنساني في الحياة والمجتمع.

وهذه الأوجه الثلاثة للتربية الأخلاقية (تربية القلب، وتربية القيم، وتربية المهارات) تشكل منطلقاً لعملية بناء المواطن الإنسان الذي يمكنه أن ينهض بنفسه وبمجتمعه إلى أفضل مراتب رقي الإنسان، ونهوض المجتمعات الإنسانية.

خلاصة:

تبين الملاحظات الجارية في الحقل التربوي أن الأنظمة التربوية القائمة ما زالت قصية عن تحقيق التوازن الأخلاقي المنتظر. فالتربية السائدة في بلداننا تركز على المهارات دون الاهتمام بتربية الروح والقلب والقيم. وهذا النوع من التربية يزود المجتمع بالخبرات والمؤهلات العلمية دون أن يركز على الجوهر الأخلاقي. ومن أجل تقديم تصور أعمق حول هذا التفكك في التربية الأخلاقية علينا أن نتساءل على سبيل المثال وليس الحصر، من أين يأتي هؤلاء الخبراء والمبرمجون في مجال الحاسوب الذين يوظفون قدراتهم الإبداعية في اختراع «فيروسات» تعمل على تدمير النشاطات الإنسانية والمؤسسات العامة وتعطيل بنوك المعلومات في مختلف أنحاء العالم، ومن أين يأتي هؤلاء الفنانون المبدعون الذين يروجون للعهر والعنف والمخدرات، وبكل بساطة نقول: إن السبب في ذلك هو غياب ثقافة القلب والضمير؛ ولأن عالمنا المعاصر يعاني من آثار الأنانية وتفكك الأسرة، وهذا كله قد أدى إلى تراجع القيم الأخلاقية في هذا العالم المريض بالجشع والمتخم بالأنانية والوحشية.

وهنا يتوجب علينا أن نعلن صراحة بأن إحياء القيم في المجتمع واجب تربوي، وهو يشكل أحد أهم وأخطر التحديات التي يواجهها القرن الحادي والعشرون. فالتربية الحقيقية، التي تتناغم مع متطلبات هذا العصر واحتياجاته، تتمثل في بناء الروح، وتشكيل الضمير، وصقل الإنسان بالقيمة الأخلاقية صقلاً يطرده صدأ الأنانية وأدران الجشع، ويغسل القلوب بماء المحبة، ويظهر العقل بنور المعرفة الإنسانية، أي: المعرفة التي توضع في خدمة الإنسان، لا في مواجهة طموحاته وأحلامه.

فازدهار المجتمع وتقدمه يقوم على أساس المواطنة الحقيقية لأناس صقلوا أنفسهم بالقيم الأخلاقية، فأمنوا بدورهم الإنساني الخلاق في عملية بناء مجتمعهم، وأدركوا القيمة العليا لمسألة الواجب والضمير والمبادئ الأخلاقية، واهتدوا بها في مسار حياتهم لتأدية رسالتهم الإنسانية الخلاقة. وهؤلاء الرجال الذين تشبعوا بالقيمة الأخلاقية لن يسمحوا يوماً لأنفسهم بتقديم مصالحهم الأنانية على مصالح شعبهم ووطنهم وأمتهم.

إن المعرفة والمواهب بمختلف أنواعها، تفقد تألقها وقيمتها الإنسانية، ما لم تؤصل بتربية أخلاقية تهذب الضمير، وتحيي القلوب، وتثير العقول. فالضمير الإنساني يشكل في جوهر الأمر نور الهداية الذي يوجه المعارف والعلوم والخبرات والكفاءات، ومن غير القيمة الأخلاقية فإن هذه المعارف قد تشكل خطراً على المجتمع يفتك بمقدراته ويدمر طاقاته الإنسانية. فلا قيمة لمعرفة من غير ضمير، ولا معنى لموهبة من غير قيمة أخلاقية، ولا أمل يرتجى من هذا وذاك إلا في دورة إيمان راسخ بالقيم الأخلاقية للحياة الإنسانية.

فالتجارب، وما أعمق دلالاتها، تبين بوضوح كبير أن السلوك الإجرامي يبدأ من مشكلات صميمية لعائلات مفككة، وأن الإبداع والحب والبناء والسلام ينطلق من بوتقة أسرة سعيدة متوازنة بمكوناتها ووظائفها الأخلاقية. وبالنتيجة يمكن القول: إن المجتمع المزدهر يتشكل من مواطنين حققوا نضجهم الأخلاقي، وصقلوا قلوبهم بالحب، وضامئهم بنور المحبة والإيمان بالله والقيم الإنسانية الخلاقة. وهؤلاء هم الذين وجدوا في أحضان أسرهم المحبة والقيم، وتذوقوا طعم السعادة في كنف محبيهم.

فالتربية الأخلاقية الحقّة يجب أن تأخذ بين حناياها بُعدَي الجسد والروح، كي تستطيع أن تطلق الشباب إلى مناهل الحرية والعمل والبناء. إنها التربية الأخلاقية التي تنهض بجناحيها: الروح والجسد، من أجل تكوين أجيال تتمتع بالقدرة على مواجهة التحديات وتقرير المصير. فالجذور الحقيقية للسعادة الإنسانية تضرب أوصالها في منبت الشخصية، وتتشكل في الأوساط العائلية التي تتميز بدفئتها وثرائها العاطفي. والسعادة التي يمكن أن تصدر من الثراء المادي ومن الثراء العلمي لا يمكنها أن تتحقق إلا من خلال البعد الأخلاقي الذي يومض بالجمال والحق والخير في أحضان الأسرة المحصّنة بالقيم الأخلاقية والتدفق الإنساني.

المراجع:

- بدوي، عبد الرحمن (1976). الأخلاق النظرية، وكالة المعلومات، الكويت.
- الجلاد، ماجد زكي (2007). تعليم القيم وتعلمها، دار المسيرة، عمان.
- جورج، جورج تدميان (2006). الوظيفة الخلقية للمدرسة، مجلة كلية التربية، جامعة قناة السويس، العدد 1.
- زاهر، ضياء الدين (1986). القيم التربوية، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة.
- سالم، فاطمة الزهراء (2007). التربية الأخلاقية في المجتمع العربي المعاصر، دار العالم العربي، القاهرة.
- وطفة، علي (2010). الأسس الرمزية والأسطورية لنشأة الأخلاق في سيكولوجيا فرويد، المعرفة السورية، العدد 566 السنة 49 - تشرين الثاني / نوفمبر.
- وطفة، علي (2009). عقلنة العنف قراءة فلسفية في البعد الأخلاقي، مجلة بناء الأجيال، العددان 70 - 71.
- وطفة، علي (2009). التربية الأخلاقية في منظور دور كهيم، مجلة التربية القطرية، العدد 170 السنة الثامنة والثلاثون، سبتمبر (ص ص 142 - 156).
- Benneth, William (1991). Is our Culture in Decline?, Education Week, avril.
- Lickona, Thomas (1991). Educating for Character: How Our Schools Can Teach Respect and Responsibility, Bantam, New York.
- Toynbee, Arnold (1951). La civilisation à l'épreuve, Gallimard, Paris.